آيا صوفيا:
رمز السلام والتنوّع

ياووز سليم كيران*

ملخص: في 10 يوليو 2020، ألغى مجلس الدولة قرارًا وزاريًّا صدر عام 1934، كان قد حوّل آيا صوفيا إلى متحف، مما مهّد الطريق لاستعادة الوضع السابق. وقد لقي القرار ترحيبًا من الأغلبية الساحقة للشعب التركي، سواء من أنصار الحكومة أم من أنصار المعارضة على حد سواء. فيما انتقد بعضهم القرار من خلال التخوّف من خلق انطباع خاطئ بأن تركيا تدير ظهرها للتسامح الديني والتنوع. لن يكون للتغيير الوظيفي لآيا صوفيا أي تأثير في تقليد تركيا الممتدّ لقرون في تعزيز التسامح والوئام والتنوع. سيستمرّ صرْح آيا صوفيا في احتضان الجميع وتوحيدهم، بوصفه رمزًا للتسامح والسلام والحوار بين الثقافات والأديان.

* نائب وزير خارجية الجمهورية التركية

Hagia Sophia:
Symbol of Peace and Diversity

YAVUZ SELİM KIRAN*

ABSTRACT *On July 10, 2020, the Council of State revoked a 1934 Cabinet decree that had turned Hagia Sophia into a museum, thereby paving the way to restoring its former function. The decision was welcomed by the overwhelming majority of Turkish people, government or opposition supporters alike. Some criticized the decision by creating a false impression that Turkey is turning its back on religious tolerance and diversity. The functional change of Hagia Sophia will have no effect on Turkey's centuries-old tradition of promoting tolerance, harmony, and diversity. Hagia Sophia will continue to embrace and unite everyone as a symbol of tolerance, peace, and dialogue between cultures and religions.*

* Deputy Minister of Foreign Affairs of the Republic of Turkey.

رؤيـــة تركيـــة
2020-(4/9)
42 - 35

DOI:10.36360/1560-009-004-002

مقدمة :

في 10 يوليو 2020، ألغى مجلس الدولة (Danıştay)، وهو أعلى محكمة إدارية في تركيا، قرارًا وزاريًّا صدر عام 1934 كان قد حوّل آيا صوفيا إلى متحف، وقد عُدّ آيا صوفيا أحد مواقع التراث العالمي لليونسكو منذ عام 1985، وجزءًا من المناطق التاريخية في إسطنبول. تبع قرارَ المحكمة مرسوم وقّعه الرئيس التركي رجب طيب أردوغان بإعادة فتح المبنى الضخم ليصبح مسجدًا بعد 86 عامًا. وقد رحّب العالم التركي والإسلامي بالقرار بحماس.

كما أوضح وزير الخارجية مولود جاويش أوغلو فإن قضية آيا صوفيا ليست مسألة دولية، بل هي مسألة سيادة وطنية لتركيا. ومن أجل إظهار مدى عدم صحة الادعاءات المتعلقة بالتحول الوظيفي لآيا صوفيا، فقد نظمنا جولة إلى المسجد الكبير في آيا صوفيا لعدد من السفراء ورؤساء المنظمات الدولية في تركيا بتاريخ من 6 و7 أغسطس 2020. وكانت هذه الجولة فرصة لا تقدّر بثمن لجميع المشاركين لمشاهدة هذه التحفة الرائعة عن كثب في وضعها الحالي. بعد الجولة، التقينا بالمشاركين البارزين في عشاء عمل، حيث جرت مناقشة السياسة الخارجية التركية والدبلوماسية الإنسانية. في الفقرات الآتية، سيجد القرّاء بعض النقاط التي شاركتُها مع السفراء والمشاركين الآخرين فيما يتعلق بالخطوات الأخيرة التي اتّخذتها السلطات التركية بشأن وضع آيا صوفيا، وهو معلَم منح صورة رائعة لإسطنبول لما يقرب من 1500 سنة.

الأعجوبة الثامنة في العالم

يجب أن يكون أحد أهم الأهداف المشتركة للإنسانية هو الحفاظ على مواقع التراث الثقافي ذات القيمة العالمية. إن آيا صوفيا، الذي يعني «الحكمة المقدسة»، أحد أكثر المعالم المعمارية استثنائية في الوجود، وقد وُصِف بأنه الأعجوبة الثامنة في العالم. وغني عن البيان أن جمهورية تركيا وسلفها التاريخي، الإمبراطورية العثمانية، كانتا على دراية منذ فترة طويلة بقيمة آيا صوفيا الثقافية والتاريخية والروحية البارزة من جميع النواحي، وقامتا على مدى قرون بحماية هذا الحرم وتجديده وتحصينه وفقًا لذلك.

من بين الهياكل المعمارية الأكثر فخامة في العصر البيزنطي، بقي آيا صوفيا كنيسة لأكثر من 900 عام واستضاف العديد من الأحداث المهمّة. على الرغم من أن المبنى نجا من الكوارث الطبيعية، بما في ذلك الزلازل الضخمة، فقد نُهِب عدد كبير من مجموعاته، والتحف التي لا تُقدَّر بثمن خلال غزو الجيش الصليبي في عام 1204م، وفي ذلك الوقت جرى تدنيس المبنى أيضًا.

تُظهِر السجلات التاريخية أنه عندما غزا السلطان العثماني محمد الثاني، «الفاتح» إسطنبول عام 1453م، توجّه مباشرة إلى آيا صوفيا، حيث لجأ السكان المحليون؛ لإعلامهم بأن حياتهم وممتلكاتهم ستكون آمنة ولن يمسّها أحد. على عكس أعمال النهب والسلب التي حدثت في القرن الثالث عشر، أو الحالة السيئة والمتداعية للمبنى قبل وقت الغزو العثماني- بذل السلاطين العثمانيون قصارى جهدهم لإصلاح الصرح وصيانته حيث أدوا فيه صلاة الجمعة. وبفضل السيطرة التركية على الممتلكات وصيانتها، لا يزال لدينا اليوم كنز من الروعة المعمارية يسمى آيا صوفيا.

بعد الفتح، حُوِّل مبنى آيا صوفيا إلى مسجد، وبقي على هذا النحو لما يقرب من 500 عام، وظلّ ملكًا لوقف السلطان محمد الفاتح حتى أصبح متحفًا في عام 1934. وفقًا للقانون التركي للأوقاف، يجب أن يكون العقار في المقام الأول مستخدمًا وفقًا للوظيفة المكتوبة في وثيقته التأسيسية (الوقفية). في هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أنه حتى في الوقت الذي جرى فيه اتخاذ قرار تحويل آيا صوفيا إلى متحف في عام 1934، ظل المبنى مسجدًا في السجلّ العقاري.

بناءً على قانون الأوقاف التركي المذكور أعلاه، ناشدت منظمة محلية غير حكومية مجلس الدولة التركي، مطالبة بإلغاء قرار مجلس الوزراء لعام 1934. وبعد الإجراءات القانونية، قرّرت أعلى محكمة إدارية إعادة آيا صوفيا إلى الوضع القانوني السابق، أي كونه مسجدًا، كما هو مسجّل في الوقف.

إذن، ما الذي تغيّر الآن بعد أن أُعِيد آيا صوفيا إلى مسجد؟ هل هو الآن مكان لا يستطيع دخوله إلا المسلمون؟ هل لن يكون ممكنًا رؤية الفسيفساء والعناصر الأخرى الموجودة فيه؟ يطرح بعض هذه الأسئلة وغيرها؛ لأنهم يبحثون بصدق عن إجابات، بينما يفعل آخرون ذلك لإثارة الارتباك، واستخدامها أداةً في حملاتهم ضد تركيا.

في الواقع، لم يعد صَرْح آيا صوفيا متحفًا، ولكن من منظور قيمته العالمية، لم يتغير شيء على مدى السنوات الخمس الماضية، زار الموقع ما يقرب من 14 مليون شخص. في وضعه الجديد، سيستمر مسجد آيا صوفيا في الترحيب بجميع الزوار، بغض النظر عن الخلفية الدينية، وسيجري الحفاظ على فسيفسائه التاريخية كما كانت على مدى الخمس مئة عام الماضية. ونظرًا للقيمة العالمية المتميزة لآيا صوفيا بوصفه موقعًا للتراث العالمي لليونسكو، سيجري تنفيذ أيّ نوع من العمل داخل المبنى بأقصى درجات العناية، واتباع إرشادات علمية صارمة. علاوة على ذلك، وفي إطار تشريعاتنا، ومن أجل فهم روح الممتلكات، وأيضًا لدعم جهود الحفظ للتخفيف من آثار الوقت على المبنى- ستكون تُحفة آيا صوفيا مفتوحة لجميع أنواع الدراسات العلمية كما كانت من قبل.

بعد قرار المحكمة، وقّعت رئاسة الشؤون الدينية ووزارة الثقافة والسياحة على بروتوكول ينصّ على أن وزارة الثقافة والسياحة هي المسؤولة عن الحفاظ على القيمة العالمية البارزة لآيا صوفيا، كما كان من قبل، في أثناء رئاسة الجمهورية. وستكون الشؤون الدينية مسؤولة عن الخدمات الدينية التي تؤدَّى هناك. ومن المعروف أنّه يجب اتخاذ بعض التدابير اللازمة للسماح بالصلاة. وبناءً على ذلك، سيُغطَّى بعض الفسيفساء بنظام الستارة في أثناء أوقات الصلاة، مع الحرص الشديد على التصميم المعماري المهيب للمبنى. ومن المعلوم أن منطقة «التتويج الإمبراطوري» ليست مدرجة في منطقة الصلاة. تدل هذه الإجراءات على رغبة الدولة التركية في الحفاظ على أهمية النُّصب، بوصفه رمزًا للتناغم بين الثقافات. وتتوافق هذه الخطوات مع اتفاقية التراث العالمي لعام 1972 التي لا تمسّ حقوق الملكية، أو تغيير وظائفها.

في رأينا، جرى تنفيذ العملية بما يتفق تمامًا مع «المبادئ التوجيهية التشغيلية لتنفيذ اتفاقية التراث العالمي»، حيث إنها لم تتضمن أيّ ترميمات دائمة رئيسة، أو إنشاءات جديدة قد

تؤثر في القيمة العالمية البارزة للممتلكات، والتي تحتاج إلى إخطار مسبق للجنة التراث العالمي من قبل الدولة ذات الشأن في مرحلة التخطيط.

> **كما أكّد الرئيس أردوغان أنَّ «من واجبنا الحفاظ على تراثنا الثقافي للأجيال القادمة». وآيا صوفيا مثال فريد لجهودنا في هذا السياق**

تولي تركيا - بوصفها عضوًا نشطًا في اليونسكو- أهمية لعلاقاتها مع هذه المنظمة الأممية البارزة. في هذا السياق، يُعَدّ تعاوننا وتدفق المعلومات مع اليونسكو ومركز التراث العالمي عمليًّا ومفتوحًا على نطاق واسع. وقد عقد ممثلنا الدائم لدى اليونسكو بالفعل عدة اجتماعات مع سلطات اليونسكو، حيث يتماشى تغيير وضع آيا صوفيا مع الاتفاقية المتعلقة بحماية التراث الثقافي، والطبيعي العالمي، والمبادئ التوجيهية التشغيلية. علاوة على ذلك، تحافظ وزارة الثقافة والسياحة التركية على خط تواصل مع سلطات اليونسكو. وفي هذا السياق، يجري تنسيق زيارة خبراء اليونسكو و«إيكوموس» إلى آيا صوفيا.

وكما أكّد الرئيس أردوغان، «من واجبنا الحفاظ على تراثنا الثقافي للأجيال القادمة». وآيا صوفيا مثال فريد لجهودنا في هذا السياق. لقد صمد هذا الصرّح العملاق أمام اختبار الزمن، وصمد كذلك حتى اليوم بكل طبقاته الثقافية وقيمته- بفضل تدابير الحماية التي اتخذتها جمهورية تركيا وسابقتها الإمبراطورية العثمانية، بما في ذلك أعمال المهندس المعماري الرئيس معمار سنان، والتجديدات التي قام بها المهندس المعماري السويسري غاسباري فوساتي، بناء على مرسوم السلطان عبد المجيد.

من المؤسف أن أولئك الذين ينتقدون تركيا ليسوا من دعاة التراث الثقافي وحرية الدّين عندما يتعلق الأمر بالتراث العثماني في بلدانهم. فقد جرى تدمير العديد من المساجد العثمانية في جميع أنحاء العالم، أو تحويلها إلى كنائس، ويستخدم البعض الآخر بطريقة لا تخدم الغرض الأصلي من البناء. لذلك، تعرب تركيا عن أسفها العميق للتصريحات التي تتجاهل احتضان بلادنا الصادق لآيا صوفيا وجميع تدابير الحفظ المتّخذة للحفاظ على قيمة هذه التحفة المعمارية وأهميتها. سيستمر تنفيذ حماية الصرح المعماري الفريد آيا صوفيا والمحافظة عليه، بلوحاته الجدارية الرائعة، والفسيفساء البديعة، وغيرها من الأصول الثقافية بدقة.

«سلام في المنزل سلام في العالَم»

تنتهج تركيا سياسة خارجية مسترشدة بمبدئها التأسيسي «سلام في الداخل، سلام في العالَم» بنهج «مبادر وإنساني»؛ لتحقيق الأمن والاستقرار والازدهار في جوارها وما وراءه، وذلك بفضل إمكاناتها الهائلة ووسائلها المتنامية والقدرات. تهدف تركيا إلى تحقيق نتائج إيجابية وملموسة على الصعيدين الإقليمي والدولي، وتعزيز السلام والأمن والاستقرار والتنمية المستدامة.

تشمل الأولويات الرئيسة للسياسة الخارجية التركية النهوض بعلاقاتها الإستراتيجية، وتعزيز إدارة الأزمات والاستقرار، وحماية حقوق المواطنين الأتراك والأقارب في الخارج، ومكافحة الإرهاب، وتطوير العلاقات مع جميع المناطق الجغرافية من خلال سياسات التوعية الإقليمية، وتعزيز العلاقات الاقتصادية والتجارية وأمن الطاقة، وزيادة التعاون مع المنظمات العالمية والإقليمية، وتعزيز قوتها الناعمة. من خلال 246 بعثة، وباعتبارها خامس أكبر شبكة دبلوماسية في جميع أنحاء العالم، تعتقد تركيا أن التعددية والجهود الجماعية ضرورية لحل القضايا العالمية.

ستستمر السياسة الخارجية لجمهورية تركيا في حماية الأمن القومي التركي، ومصالح تركيا، مع الإسهام في الأهداف المشتركة للإنسانية، بما في ذلك الحفاظ على مواقع التراث الثقافي ذات القيمة العالمية.

بتفانٍ كبير تلتزم تركيا بإرثها من التسامح تجاه التعددية الدينية والتعددية الثقافية، حيث يقوم نظامنا الدستوري على أساس المساواة أمام القانون. ويجري التمتع بالحقوق والحريات الأساسية وممارستها بشكل فردي وفقًا للقانون. يحمي دستورنا وتشريعاتنا حرية الدين والمعتقد الديني والقناعة والتعبير والعبادة، ويحظر التمييز على أساس الدين. ومن ثَمّ، يتمتع المواطنون الأتراك المنتمون إلى مجموعات دينية مختلفة بما تتمتع به الأغلبية، ويمارسون الحقوق والحريات نفسها.

يوجد حاليًّا ما يقرب من 435 كنيسة ومعبدًا يهوديًّا مفتوحًا للعبادة في جميع أنحاء البلاد. وقد أُعِيد فتح العديد من أماكن العبادة التي كانت مغلقة أمام الخدمة لسنوات عديدة بعد أعمال الترميم المموّلة من الميزانية الوطنية لتركيا بأموال دافعي الضرائب الأتراك في السنوات الأخيرة، وإن كان ذلك في دولة ذات أغلبية مسلمة. وهذا يوضح مدى التزام تركيا بحزم وإخلاص بالتنوع الديني.

في العقد الماضي فقط جدّدت السلطات التركية المختصة 15 كنيسة ومعبدًا يهوديًّا في جميع أنحاء تركيا. وتشمل هذه الكنيس الكبير في أدرنة، وهو أكبر كنيس يهودي في البلقان،

وثالث أكبر كنيس في أوروبا، وكنيسة سفيتي ستيفان البلغارية في إسطنبول، والمعروفة باسم الكنيسة الحديدية، وكنيسة آيا نيكولا في جوكجيادا، والكنيسة السريانية الكاثوليكية في إسكندرونة، والكنيسة الأرمينية البروتستانتية في ديار بكر، وكنيسة نيزيب فيفكاني في غازي عنتاب، وكنيسة تكسيارهيس في جزيرة كوندا، وكنيسة آيا يورجي في إسطنبول. وفي الآونة الأخيرة أُعِيد افتتاح دير سوميلا في طرابزون للزوار بعد خمس سنوات من أعمال التجديد، كما رُمِّمت كنيسة أكدامار الأرمنية في مدينة وان، التي يعود تاريخها إلى أكثر من ألف عام، من خلال أعمال دقيقة ومهنية جرى تنفيذها بعناية.

في العام الماضي، بناءً على تعليمات من الرئيس أردوغان، خُصِّصت قطعة أرض للمجتمع المسيحي الآشوري لبناء كنيسة جديدة في إسطنبول. وستكون هذه أول كنيسة آشورية على الإطلاق تُبنَى في تركيا في العصر الجمهوري. علاوة على ذلك، فإن كنيسة مار بيتيون الكلدانية وأكبر كنيسة أرمنية في الشرق الأوسط، كنيسة سورب جيراغوس، اللتين تضررتا في الهجمات التي شنّها إرهابيو حزب العمال الكردستاني في سور ديار بكر – تخضعان حاليًّا للترميم.

بالإضافة إلى هذه الترميمات وغيرها، يجوز للأقليات الدينية تسجيل ممتلكاتها، وفي بعض الحالات تحصل على تعويض مالي، وذلك بفضل التعديلات في قانون المؤسسات الذي سُنَّ في عام 2011. ومنذ ذلك الحين، سُجِّلَ 333 عقارًا، ودُفِع التعويض. لـ21 عقارًا.

خاتمة :

على حدّ تعبير وزير خارجيتنا مولود جاويش أوغلو، «كلّ القرارات المتعلقة بآيا صوفيا مسألة سيادة وطنية». ومع ذلك، لن يكون للتغيير الوظيفي لآيا صوفيا أيّ تأثير في تقليد تركيا الممتد لقرون في تعزيز التسامح والوئام والتنوع. على العكس من ذلك، ستزداد آفاق الحوار من خلال تطبيق سياسة الباب المفتوح للجميع، بغضّ النظر عن الخلفية الدينية أو القومية أو العرقية. إن آيا صوفيا، كما يوحي اسمها «الحكمة المقدسة»، هي المكان الذي يجتمع فيه المؤمنون للاستفادة من الحكمة الإلهية. ستستمر آيا صوفيا في احتضان وتوحيد الجميع، بوصفها رمزًا للسلام والتنوع بين الثقافات والأديان. وبلا شك ستستمر جهودنا للحفاظ على ممتلكات التراث العالمي، وإدارتها بشكل مستدام، بما في ذلك آيا صوفيا.